من قصص العصر الفاطمي :

خاتمـــة حيـــاة

الأستاذ أحمد أحمد بدوى

خذ يا نصر ، فليس هذا بكثير عليك .

قال ذلك خليفة مصر الظافر بأمر الله وهو يقدم إلى نصر ابن عباس عشرين طبقاً من الفضة مملوءاً كل واحد منها بعشرين ألف دينار . فأجابه نصر: شكراً يا مولاى ، إننى لم أزد على أن أرحتكم من وجه كنتم تبغضونه ، وإن سرور مولاى هو كل ما أسعى إليه وأبغيه . قال الخليفة : ذلك قليل يا نصر ، لقد قضيت أكثر من أربع سنين وأنا أحمل هذا الوزير شجى فى حلق ، وقذى فى عينى ، ومن الغريب أنه كان يسمى نفسه الملك العادل ، وأى ظلم أكبر من سلب حق واغتصاب سلطانى ! هـذا أول يوم أشعر فيه بمجد الملك وعظمة الخلافة ، وستكون تلك الليلة تذكاراً لهذا العهد الجديد السعيد .

وما إن أقبل الليل حتى كان قصر الخلافة جوهرة غارقة فى النور ، وجاء الندماء يمنون النفس بليلة سارة وساعات شهية ، ولم تلبث جنبات القصر أن تجاوبت بأصداء الغناء ، ودارت الساقيات الجميلات بين السكروم تلعب بالرءوس وتفعل ما تشاء بالألباب ، ولما انقضى من الليل أكثره تفرق الجمع ، ولكن الخليفة لم يرد أن تنقضى تلك الليلة من غير إنعام جديد على قاتل وزيره ابن السلار ، فوهب نصراً مدينة قليوب ، وأوصاه أن يبكر فى الحضور إليه ، فإنه ما كان يصبر على البعد عنه .

خرج نصر فرحاً بما أعطى ، ولما قابل أباه عباساً (وقد صار وزيراً) أخبره بأمر هذه الهبة ، فما زاد أسامة بن منقذ أحد

فقال له الشيخ عبد الجبار وقد غلى دمه وهو لا يغلى إلا فى المسلم : سبحان الله يا أخى ! لماذا تتجهمنى هذا التجهم ، وتعنفنى هذا التعنيف ؟ من قال لك اننى فرحت بموت مولاى ؟ هل كنت مغلوباً فانتصرت لى ، أو مكروباً ففرجت عنى ، أو ضعيفاً فأشفقت علىّ ؟ وهب الأمر كان كذلك ، فهل بعد خروجى مأرب ، أو بعد حمارتى مركب ، أو بعد روحى حياة ؟ !

جلساء الوزير على أن قال : « ما هى فى مهرك بكثير يا نصر » .

وهنا اربد وجه الفتى ، وغلى الدم فى عروقه ، وأقبل يدافع عن نفسه فى حماسة وقوة ، حتى قال له والده : « نحن لا نصدق يا بنى ما يقال ، ولكن الناس يلوكون عرضك وعرض الأمير ، فبالله إلا غسلت هذا العرض . إن جمال الوجه كثيراً ما يجلب على صاحبه الأقاويل ، ولقد خجلت لكثرة ما سمعت عنك وعن مولاك » . فخرج نصر وقد صمم على أمر .

لم يبد على صلة الصديقين فتور ، بل اطردت كما هى : يقضى نصر معظم وقته مع الخليفة ، حتى إذا كان يوم اشتد فيه إقبال الظافر على نصر ، قال له نصر : « لقد نلت منك يا مولاى كل أنواع التكريم ؛ فهل يضيف سيدى إلى نعمه تشريفه إياى فى وليمة خاصة بنا فى منزلى الليلة ، وسوف أفاجئ مولاى بما يلذ له من جيد الغناء ، وعتيق الخمر ، وأجمل النساء » . ولم يكد نصر يسمع من الخليفة ترحيبه بالدعوة وقبولها قائلا له : « ذلك هو العيش يا نصر » ، حتى خرج يعد للأمر عدته .

وفى الليـل الساجى ، والظلام الذى لا تتبين فيه شخوص السائرين ، خرج الخليفة الشاب من قصره مستخفياً ، لا يصحبه غير خادمين ، ولا يكاد يتميز عمن حوله من الناس ، حتى إذا دخل منزل مضيفه ، واستقر به مجلسه ، انقض عليه وعلى أحد خادميه من أعدهم نصر للانقضاض ، وبعد بضع دقائق كانت جثة الخليفة ملقاة فى بئر هناك ، ومضى نصر يخبر والده بما فعل !

تنفس الصبح فشاهد الناس فى البكور الوزير عباساً ميمماً قصر الخلافة يتبعه ألف جندى شاهرون سلاحهم ، ودخل القصر ، وطال جلوسه ، فاستدعى زمام القصر ، وقال له : « إن كان لمولانا مايشغله عنا فى هذا اليوم عدنا إليه فى الغد » ؛ فمضى الزمام وهو حائر يبحث عن الخليفة فى كل مكان ، ثم عاد يقول لعباس : « خرج الخليفة البارحة لزيارة ولدك نصر فلم يعد ! فقال عباس : « تكذب يا عبد السوء ! لقد دبرأخواه قتله حسداً له على الخلافة ، واتفقتم على هذا القول » ؛ فقال الزمام : « معاذ الله ! » ؛ قال عباس : « فأين هما ؟ » ؛ فخرجا إليه ، فسألهما عن أخيهما ، فأنكرا معرفة مكانه ، فأمر غلمانه بقتلهما ، فقتلا بين يديه ! !

وفى ليلة حزينة ثقل الهم فيها على عباس وابنه ، فقد آداهما أن يشتركا فى قتل ابن مصال وزير الظافر الأول ، وقتل ابن السلار

وزيره الثانى ، وأن يقتلا الخليفة وأخويه ، ثم يبحثا حولها فيجدا السلطة التى جدا فى الحصول عليها تكاد تفلت منهما وتمضى ، فأقبل أحدهما على صاحبه ودار بينهما حديث :

— أرأيت يا نصر : إن الأمر لم يصف لنا كما كنا نؤمل ، وإن الجمهور لم يجز عليه ما أحكمناه من حيلة وتدبير !

— الذنب فى ذلك ذنب رجالى يا أبى ، فإن خادم الظافر الذى أفلت من يدهم هو الذى أذاع سر الجريمة ، وكشف ما كنا نحرص على ستره .

— وهذا الشعب الذى ألفنا منه الطاعة أصبح ثائراً متمرداً يسمعنا أنى سرنا أوجع الكلام وأحط أنواع السباب ، ينادى بالثأر ، ويهتف بالانتقام .

— ليت الأمر يا أبى وقف عند الهتاف والكلام ، فإن الفتنة قائمة ، والأنصار الذين كنا نعتمد عليهم قد انفضوا من حولنا ، وأصبحت لا أرى إلا وجوهاً عابسة ، ونفوساً متبرمة ، وجواً ينذر بعاصفة .

— لقد كنت يا بنى ساثراً بالأمس فرأيت هاوناً ألقى على ، ولولا حظى الحسن لحطم رأسى . وأول أمس ألقى على ماء يغلى كاد يحرقنى لولا فضل الله !

— وهل جاءك نبأ طلائع بن رزيك ، لقد بعث إليه الأمراء يستنجدون به ليأخذ بثأر من قتلناه . أما أخوات الظافر فقد بعثن إليه بشعورهن فى كتب سوداء ، وأطلعنى جاسوس لا يزال مخلصاً لنا على قصيدة طويلة أرسلها إليه القاضى الجليس يحثه فيها على الانتقام ، ولا إخال طلائع إلا منتهزاً تلك الفرصة النادرة ، وقادماً إلى القاهرة ليجلس على كرسى الوزارة الذى ينتظره ، ويثأر منا إن ظفر بنا .

وهل ننتظر حتى يظفر بنا ؟ لا بد من الهرب يا بنى !

— وإلى أين يا أبى ؟

— إلى الشام عند نور الدين محمود ، وسنطلعه على ما وصلت إليه مصر من الضعف والانحلال ، ونزين له فتحها ، ونكون له عمالا عليها ، وسوف يمهد لنا الطريق إليه الأمير أسامة بن منقذ رفيقنا فى رحلتنا .

* * *

حث الرسل الخطا إلى طلائع فاستشار من حوله من رجاله ، وأجمعوا أمرهم بينهم على الزحف السريع إلى القاهرة ، وانضم إليهم قبائل كثيرة من العرب والسودان ، حتى إذا وثقوا من القاهرة لبسوا جميعاً ملابس سوداء ورفعوا رايات سوداء ، ونشروا شعور السيدات على أطراف الرماح ، وخرج أهل المدينة لاستقبال الجيش الزاحف هاتفين بالثأر من القاتلين .

لم ينتظر نصر ووالده ومن معه حتى يدهمهم عدوهم فى عقر دارهم ، بل جمعوا ما بقى لهم من رجال ، وحملوا كل ما يملكونه من متاع ومال ، ولما جن الليل فروا من القاهرة مهطعين ، غير أن عيون أخوات الظافر سرعان ما نقلوا خبر فرارهم إليهن ، ففكرن فى الأمر ملياً : هل يتركن الأسير يفلت ؟ وهل يدعن الانتقام ممن حرمهن الأخ الصغير والأخوين الكبيرين ، وأهان عرش الآباء والأجداد ؟ أو يكتفين بأن يذهب العدو ويدعهن أحراراً فى بلادهن ؟ وهل يأمن جانب هذه الأفعى وهو رأس المؤامرات وأساس الفتن والدسائس ؟ إنهن لا يأمن جانبه ولا يعرفن قصده ولا نواياه . ومن يدرى ما ذا تكون النتيجة إذا ترك حياً ، فربما كان فى بقائه خطر جديد يهدد الأسرة والعرش .

والآن ، لا بد من التفكير السريع قبل أن يطير العصفور من القفص ، وتفلت الفرصة من اليد . سيهرب نصر ووالده إلى الشام ، وسيمران بأرض الصليبيين فى طريقهما ، وإذا كان الصليبيون أعداء مصر فلا بأس من الاستعانة بهم فى القبض على القاتل الفار ؛ ولما كان الأمر يتطلب سرعة فى التنفيذ ، أرسلن رسولا يثقن فيه كل الثقة ، وطلبن منه أن يسابق الريح حتى يصل إلى هدفه قبل أن يفر نصر .

وجد القائد الصليبى لقلعة عسقلان فيما عرض عليه الرسول المصرى ما يغريه بمقابلة نصر وأبيه ، فالقائد مطمئن إلى النجاح والظفر بما مع الفارين غنيمة باردة وبما وعدت بتقديمه أخوات الظافر من المال ، فأصدر أمره إلى الجند بالتأهب لمقابلة الفارين . وبينما كان نصر وعباس يمنيان النفس بكبار الآمال أبصرا جند الصليبيين يحيطون بجمعهما ، فلم يجدا بداً من الدفاع عن أنفسهما فى معركة خاسرة ، مات فيها عباس وابن له صغير ، بينما حرص الجند على أن يظفروا بنصر حياً ليثأروا — كما وعدوا — بأجزل الصلات ، فلما سقط فى أيديهم وضعوه فى قفص من جديد .

الركب سائر إلى القاهرة ، وفؤاد نصر قد ملئ بما شغله من